obeikandl.com

اللقاء العاصف في برلين

بين هتلر وروميل

الفصل السابع عشر

obeikandl.com

كانت عملية المطاردة التي قام بها الجنرال برنارد مونتجومري قائد الجيش الثامن البريطاني لغريمه الفذ الفيلد مارشال إروين روميل قائد الفيلق الألماني الأفريقي وقائد قوات المحور عبر الصحاري المقفرة الجرداء الخالية من كل زرع أو ماء تعد قمة في التشويق والإثارة لكل من يعشق المغامرات، أو يعرف مبادئ الحرب وأصول الفن العسكري، فقد كان المشهد المعروض على مسرح القتال في الشمال الأفريقي وقتئذ أشبه بدراما سينمائية مفجعة لصراع مميت بين صياد إنجليزي شديد اليأس موفور القوة ملئ بالحماسة والتصميم ولديه التفوق الساحق في الأسلحة والمعدات، وبين خصم داهية ماكر كان إلى عهد قريب هو ثعلب الصحراء الأوحد وبطلها المظفر، والذي دوَّخ بمهارة خططه وتكتيكاته وبراعة مكائده أقوى جيش بالشرق الأوسط، مما جعله يرتد أمام جرأته وأحابيله، ويهرع منسحبًا إلى ما وراء الحدود وهو في أشد حالات الضياع والانهيار.

ولكن الأوضاع لم تلبث أن تغيرت فقد تدفَّقت الإمدادات والأسلحة والمعدات بمقادير هائلة لإنقاذ ذلك الجيش البريطاني المنهار في العلمين قادمة من الشقيق القابع وراء المحيط الأطلنطي، والذي ظل منتظراً في صبر وأناة ولسنوات طوال أن تتهيأ الفرصة أمامه كي يفرض سيطرته على العالم ـ كما جرى حاليًا ـ في الوقت الذي ضنَّت قيادة ذلك الثعلب عليه بأي إمدادات أو أسلحة كانت كفيلة لو وصلت إليه بسيطرته على الشرق الأوسط بأسره وربما تغير وجه التاريخ، وهكذا بدأت المطاردة الدرامية التي قام بها الصائد الإنجليزي المزود بأحدث أسلحة الحرب والدمار لذلك الثعلب الذي أضحى ضعيف القوة مهيض الجناح بعد أن نزفت دماؤه، واقتلعت أنيابه، وقلمت أظافره في ساحة العلمين، وفي سبيل النجاة بنفسه من غوائل الموت أو ذل الأسر انطلق الثعلب المثخن بالجراح غربًا صوب قاعدته في طرابلس قاطعًا الفيافي والقفار بأقصى

سرعة لديه وبلا راحة أو توقُّف، بينما اندفع وراءه ذلك الصائد العنيد، وأخذ يطارده بشدة وعنف، وبلا رحمة أو شفقة عبر الصحراء المصرية، ثم الليبية عاقداً عزمه على إنهاء ذلك الصراع الطويل الضاري الذي استمر ناشبًا أكثر من ثلاثين شهراً ما بين مد وجزر وبين كرٍّ وفر، ومن العجيب أن يكون مسرح الصراع بين الطرفين المتصارعين أرضًا لا يملكها أحد منهما ودون أن يستطيع أصحابها التدخل في الصراع الدائر عليها، وبرغم ضعف الثعلب الألماني بعد أن خارت قواه، وفقد الكثير من قدراته ومعنوياته فقد تمكن من الانطلاق غربًا في سرعة خارقة لمسافة شاسعة بلغت أكثر من 2000كم دون أن يستطيع الصائد الإنجليزي اللحاق به، فقد اتبع الأخير الحيطة والحذر بشكل مبالغ فيه؛ خشية أن تدور عليه الدائرة، كما دارت من قبل على أسلافه من القادة الكبار بفضل ما كان يتمتع به ذلك الثعلب من دهاء وعبقرية، وما عرف عنه من مهارة في تدبير الأحابيل والمكائد؛ مما أتاح له الفرصة للإفلات والنجاة من كل ما نصبه له الصياد من شباك وكمائن مستهدفًا صيده، وهكذا أثبتت العبقرية أنها في كثير من الأحيان يمكن لها التفوُّق على عناصر القوة المادية مهما بلغت سطوتها.

الموقف العسكري للطرفين في أواخر نوفمبر عام 1942

كان هدف مونتجومري من قيام قواته بعملية المطاردة التي بدأت يوم 4 نوفمبر 1942 هو تطويق قوات المحور الألمانية الإيطالية؛ لقطع خط الرجعة عليها، وإرغامها على التسليم، وعدم منحها الوقت الكافي للقيام بعملية إعادة التنظيم؛ أو استعادة ميزة المبادأة، وعلى الرغم من أن روميل طوال انسحابه السريع بقواته من العلمين إلى بني غازي عاصمة برقة والتي تزيد مسافتها عن 1000كم لم يحاول التوقف بقواته في أي موقع للدخول في معركة حاسمة مع قوات الجيش الثامن البريطاني، كما لم يتمكَّن خلال مراحل المطاردة الثلاث من ممارسة تكتيكاته الفذة التي مارسها من قبل في معاركه مع البريطانيين، والتي أدت إلى إلحاقه الهزيمة بالجيش الثامن مرتين؛ كانت **أولهما** في

معركة باتل آكس في منتصف يونيو 1941 التي اضطَّر الجنرال ويفل بعدها إلى الانسحاب من برقة إلى ما وراء الحدود المصرية، وكانت المرة **الثانية** بعد مرور عام كامل من المرة الأولى في معركة الغزالة في 13 يونيو 1942، والتي انتهت بهزيمة الجنرال ريتشي والجنرال أوكنلك، وانسحاب الجيش الثامن من برقة إلى خط العلمين في أسوأ حالة من التفكك والانهيار، ولكن الظروف في هذه المرة كانت مختلفة تمامًا عن سابقتها، فبالإضافة إلى الهزيمة الحاسمة التي تلقاها روميل على رأس قوات المحور في العلمين قام الحلفاء في 8 نوفمبر 1942 بعملية إنزال كبرى لقوات أمريكية وبريطانية على شواطئ المغرب والجزائر، وأخذت هذه القوات في التقدُّم بسرعة في اتجاه الشرق، مما أصبح معه خط مواصلات روميل مع قاعدته الرئيسية في طرابلس مهدَّدًا بالقطع، وبالتالي فقد أمله في قدرته على شن هجوم مضاد رئيسي على الجيش الثامن لمحاولة وقف تقدُّمه، وإجباره على الانسحاب للمرة الثالثة إلى ما وراء الحدود المصرية.

وقد بدأت المرحلة الأولى للمطاردة (من العلمين إلى السلوم) يوم 4 نوفمبر 1942، واستغرقت نحو أسبوع واحد قاد خلالها الفيلق 10 البريطاني المدرع عملية المطاردة، بينما ظل الفيلق 30 يتبعه في وثبات؛ ونظرًا لهطول الأمطار بغزارة مساء يوم 6 نوفمبر لذا توقفت المطاردة يوم 7 نوفمبر، مما أتاح الفرصة لروميل كي يسحب جانبًا كبيرًا من قواته وأسلحته على محور الطريق الساحلي، وفي يوم 11 نوفمبر أصبحت الأراضي المصرية خالية من قوات المحور، وانتهت بذلك المرحلة الأولى من المطاردة بفشل مونتجومري في محاولاته لتطويق قوات المحور المنسحبة غربًا، وقطع خط الرجعة عليها، ونجاح روميل في الإفلات بقواته فيما عدا أربع فرق إيطالية وقعت جميعها في الأسر؛ بسبب عدم وجود عربات لنقلها.

وفي يوم 11 نوفمبر أيضًا بدأت المرحلة الثانية من المطاردة (من السلوم إلى بني غازي)، وهي مسافة تبلغ حوالي 700كم، وقد استغرقت نحو عشرة أيام استمر خلالها

الفيلق 10 البريطاني في قيادة عملية المطاردة، بينما كان الفيلق 30 يتبعه في وثبات، وعلى الرغم من أنه كان في مقدرة مونتجومري إرسال قوة كبيرة من الجيش الثامن للتقدم على الطريق الصحراوي الداخلي الذي يمر بالمخيلي ومسوس وعنتيلات للوصول بسرعة إلى إجدابية التي تقع جنوب بني غازي وعلى مسافة نحو 150كم منها، وقطع خط الرجعة على قوات المحور المنسحبة غربًا على الطريق الساحلي فإن مونتجومري بدافع من حذره الشديد قرر أن تستمر المطاردة على الطريق الساحلي وحده عبر الجبل الأخضر، مما أفقد المطاردة سرعتها، وفي يوم 20 نوفمبر سقطت بني غازي في أيدي الفيلق العاشر البريطاني، وفي يوم 23 نوفمبر سقطت إجدابية التي أخلتها قوات المحور وواصلت انسحابها غربًا إلى العقيلة بعد إفلاتها من أية عملية تطويق ضدها، وفي يوم 24 نوفمبر تم فتح ميناء بني غازي للسفن لإمداد الجيش الثامن بما يلزمه من إمدادات ومؤن، وبذا انتهت المرحلة الثانية من المطاردة.

وفي المرحلة الثالثة التي بدأت يوم 24 نوفمبر تأثرت المطاردة إلى العاصمة طرابلس بعاملين: كان **أولهما** القتال التعطيلي الذي قام به روميل لوقف تقدم الجيش الثامن أطول فترة ممكنة لإتاحة الوقت للقيادة الألمانية في تونس كي تنتهي من تنظيم الدفاع عنها ضد قوات الحلفاء التي تزحف من الجزائر للاستيلاء عليها. أما العامل **الثاني** فكان سوء الموقف الإداري للجيش الثامن؛ نظرًا لطول خط مواصلاته، وقد وقعت العمليات الحربية في هذه المرحلة في مرحلتين فرعيتين كانت أولاهما معركة العقيلة، وكانت الثانية معركة خط البويرات.

وكان روميل قد قرر التوقُّف لأول مرة منذ انسحابه من العلمين عند خط العقيلة الحصين الذي كان يعد موقعًا دفاعيًّا طبيعيًّا، وتلقى روميل في هذا الموقع إمدادات عديدة من الجنود والدبابات بحيث استعاد بها جانبًا كبيرًا من قوته، وقد أقام في خط العقيلة ستارة هائلة من المدافع المضادة للدبابات (عيار 88مم و50مم)، كما بث عددًا ضخمًا من حقول الألغام والشراك الخداعية، واحتفظ خلف الخط الدفاعي بحوالي 100 دبابة

كاحتياطي تعبوي، وبرغم الترتيبات الكبرى التي بذلها مونتجومري للاستعداد للهجوم فقد قرَّر أن هجومه لن يبدأ على العقيلة قبل مضي ثلاثة أسابيع؛ أي قبل منتصف ديسمبر 1942.

جورنج بين العبقرية والجنون

انتهز هتلر فرصة ركود العمليات الحربية في ليبيا، وتوقف عملية المطاردة مؤقتًا بعد احتلال روميل لموقع العقيلة الحصين، لاستدعاء روميل للقائه في مقر القيادة العليا الألمانية في برلين في أواخر شهر نوفمبر 1942، كان هذا اللقاء واحدًا من اللقاءات المثيرة التي فقد فيها الزعيم النازي أعصابه، وكان روميل ـ استجابة لما طلبه منه هتلر ـ قد قام في بداية اللقاء بعرض صورة عامة للموقف العسكري المتدهور في ليبيا بصراحة ووضوح، وعندما أكد لهتلر بأن الوضع في شمال أفريقيا ميئوس منه، وأن أفضل الحلول هو التضحية بالأسلحة والمعدات في سبيل إنقاذ الفيلق الأفريقي، والقيام بنقله على وجه السرعة إلى إيطاليا ليواصل القتال مرة أخرى ثار هتلر، واتهمه بأنه وقواته مجموعة من الجبناء، وذكر لروميل أن الجنرالات الألمان الذين أبدوا مثل هذا النوع من الاقتراحات في الجبهة الروسية قد تم وضعهم أمام الحائط وأُطلِقَ عليهم النار.

وأبدى هتلر لروميل اهتمامه الشديد ببقاء طرابلس في أيدي الألمان مهما كان الثمن؛ إذ إن سقوطها في أيدي البريطانيين ربما يؤدي إلى خروج إيطاليا من الحرب وعقدها صلحًا منفردًا مع الحلفاء، وعندما سأل روميل زعيمه عما إذا كان الأفضل ضياع طرابلس أم ضياع الفيلق الأفريقي رد هتلر صائحًا بأن الفيلق الأفريقي لن يعنيه، وللمرة الأولى شعر روميل بمدى استخفاف هتلر بالشعب الألماني، وأدرك الحقيقة القاسية التي لم يكن يتصورها من قبل، وهي أن زعيمه لا يكترث بحياة الرجال الذين يقاتلون من أجله، وأنهى هتلر اللقاء بأسلوب كان أشبه بالطرد بالنسبة لروميل، فقد صاح فيه قائلاً: "اذهب من هنا، فإن لدى أعمالاً أخرى أهم كثيراً من التحدث إليك"، ولم

يكد هتلر يتم عبارته حتى أدى روميل التحية العسكرية، ودار على عقبيه، وانصرف من الغرفة، وبعد أن سار روميل بضع خطوات فوجئ بأن هتلر قد هرول وراءه، ووضع ذراعه فوق كتفه، وقال: "يجب ألا تؤاخذني فإني في حالة عصبية بالغة السوء، ولكن كل شيء سوف يكون على ما يرام، احضر غداً لمقابلتي وسوف نتحدث في كل شيء بهدوء، من المستحيل التفكير في أن الفيلق الأفريقي سيتم تدميره".

حضر روميل بالفعل لمقابلته في اليوم التالي، ووجد برفقته المارشال جورنج قائد الطيران الألماني، والتفت هتلر إلى جورنج قائلاً: "افعل كل ما تريده، ولكن تأكد أن الفيلق الأفريقي قد تم إمداده بكل ما يقول روميل إنه في حاجة إليه"، وطمأن جورنج هتلر بأنه سيتولى بنفسه تنفيذ كل رغباته ومطالبه.

ووجه مارشال الرايخ جورنج الدعوة إلى روميل وزوجته لمرافقته في قطاره الخاص إلى العاصمة الإيطالية روما، وعندما التقيا به في محطة ميونخ، وركبوا جميعًا القطار وجداه يرتدي حلة رمادية نصف مدنية كان أسفلها (صديري) من الحرير الرمادي، وكان رباط عنقه مثبّتًا بمشبك كبير من الزمرد، وأصابت روميل الدهشة حينما أبصر خاتمًا في أحد أصابعه مركّبًا عليه ماسة ثمينة كبيرة الحجم، وانقلبت دهشته إلى ازدراء حينما اكتشف أن أظافره مطلية بالطلاء، وفي أول فرصة سنحت عرض جورنج في انتفاخ وزهو خاتمه الثمين على زوجة روميل قائلاً: "أعتقد أنه يهمك رؤية هذه الماسة التي فوق الخاتم إنها واحدة من أثمن الماسات في العالم"، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تقابل فيها زوجة روميل مارشال الرايخ الشهير وقائد الطيران الألماني (اللفتواف)، وقد أصيبت بخيبة الأمل نفسها التي أصيب بها زوجها.

ولفرط دهشة روميل وزوجته كان حديث جورنج طوال رحلة القطار منحصراً فقط في عشقه للصور، وكيف أنهم يعتبرونه فنان الرايخ الثالث؟ وكيف أن المارشال بالبو (قائد الطيران الإيطالي) أرسل له تمثال أفروديت (آلهة الجمال)، ولم يتطرَّق جورنج

طوال الرحلة، وفي أثناء حديثه المطول عن نفسه وعن هوايته الفنية بكلمة واحدة عن شمال أفريقيا، كما قاوم جورنج بشدة كل المحاولات التي كان يبذلها روميل لتحويل محور الحديث من الصور والتماثيل إلى الإمدادات المطلوبة لأفريقيا، وقبل مغادرة القطار في محطة روما سلَّم جورنج لروميل وسام الرايخ الهتلري، وصليب السلاح الجوي مرصعًا بالماس، مما جعله يعتقد أنه قد أرضاه.

وفي العاصمة الإيطالية روما، وفي أثناء وجودهم بالفندق الكبير تكررت القصة نفسها، ولم يفعل جورنج شيئًا سوى البحث عن الصور والتماثيل النادرة، وعلَّق روميل لزوجته في استخفاف على تصرفات المارشال الذائع الصيت جورنج قائلاً: "كل ما يفكر فيه جورنج هو كيف يملأ قطاره الخاص بهذه المقتنيات الثمينة، ولم يبذل أدنى محاولة للقاء أحد من الذين يمكنهم معاونتي في تحقيق مطالبي".

وهمس جورنج لزوجة روميل ما لاحظه من أن زوجها يغلب عليه التشاؤم، فأجابته بأن هذه ليست حالته الطبيعية، فهو في العادة شديد التفاؤل، ولكنه يتطلع إلى الموقف العسكري المتحرِّج بنظرة واقعية، ووجدها جورنج فرصة للتفاخر، فرد عليها قائلاً: "هو لا يدرك أبعاد الموقف بأكمله كما أدركه أنا، سوف نرعاه وسوف نحقق له كل ما يريده"، ومضى جورنج بعد ذلك يعدد في حديث مطول لمناقبه وإنجازاته الرائعة للرايخ الثالث في الماضي والحاضر وما سيقوم به في المستقبل، وقد بدا هذا الحديث لزوجة روميل أنه نوع من الهلوسة.

ونظرًا لأن مظهر جورنج في هذه الرحلة التي رافقه فيها روميل وزوجته كان يدل على قدر كبير من البلاهة والهوس مما يتناقض تمامًا مع ما أظهره جورنج فيما بعد من مقدرة ودهاء أثناء مواجهته في محاكمات مجرمي الحرب في نورمبرج بألمانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية فإن ذلك يدعو إلى التساؤل عما إذا كان جورنج في المرحلة التي جرت فيها رحلته إلى روما قد عاد مرة أخرى إلى ممارسة عادته القديمة في تعاطي الأفيون؟! وقد أُخِذَت له في أثناء وجوده في روما عدة صور تدعو إلى العجب لفرط ما

تحمله من معان صبيانيَّة، ومنها صورة له بملابس الحرس، وهو يحمل في يده علمًا أخضر اللون، كما أذيعت قصة عنه انتشرت في كل أنحاء روما، وهي توجهه إلى إحدى الحفلات الكبرى وهو يرتدي عباءة فضفاضة.

ولم يتمكن روميل من تحمل هذه التصرفات الشاذة من أكبر المارشالات الألمان، وأقواهم نفوذًا، وأقربهم إلى هتلر أكثر من ثلاثة أيام قال بعدها: "أنا لا أفعل شيئًا هنا له أية أهمية سوى أنني أفقد أعصابي، من الأفضل أن أعود ثانية إلى الفيلق الأفريقي".

وفي اليوم التالي عاد روميل إلى مقر قيادته خلف منطقة العقيلة في ليبيا، وهو مقتنع تمامًا بأن المارشال جورنج مصاب بالجنون، وأن زعيمه هتلر ليس أفضل حالاً منه، وكان أشد ما آلم، روميل خلال هذه الفترة ما علمه من تدفُّق القوات الألمانية والإيطالية على تونس بطريقي الجو والبحر بأوامر القيادة العليا الألمانية دون التذرُّع بأي نوع من العلل والحجج للامتناع عن إرسال القوات، كما كانت عادة هذه القيادة معه كلما طالبها بإرسال الإمدادات التي كان في أشد الحاجة إليها، ففي خلال شهر نوفمبر وصلت إلى تونس بطريق الجوكتيبتان من القوات المنقولة جواً، وكتيبة مهندسين وسرعان ما تبعتهما وحدات عديدة من المشاة والدبابات والمدفعية تشكَّلت منها فرقة مختلطة، وفي منتصف ديسمبر وصلت الفرقة 10 المدرعة والفرقة 334 مشاة، كما قدمت من كريت كتيبة قاذفي قنابل يدوية، ووصلت أيضًا إلى تونس كتيبة دبابات ثقيلة (الكتيبة 501) المزودة بالدبابات الحديثة من طراز تيجر التي سبق لهتلر أن وعد بها روميل، كما كانت فرقة هيرمان جورنج المدرعة الذائعة الصيت من ضمن الوحدات التي أُرسلَت إلى الميدان الأفريقي الجديد، وفضلاً عن ذلك وصلت عدة تشكيلات ألمانية وإيطالية من مختلف الأسلحة ومن شتى الجبهات تم إرسالها إلى الجبهة التونسية على وجه السرعة، وكأنما كان الهدف من إرسالها هو تضخُّم حجم غنيمة الحلفاء، فقد قامت كل هذه التشكيلات والوحدات بالاستسلام لقيادة الحلفاء بعد شهور قلائل.